ثلاث حكايات إسبانية من أصل عربي

Tres Cuentos espanoles de
Origen Arabe
Al-Andalus
Vol : XXXIII 1968
Fasc . 1

ثلاث حكايات إسبانية ذوات أصل عربي

حينما كنت أقرأ منذ بضعة أشهر الطبعة الجديدة من كتاب «الملح الإسبانية» التي جمعها باث وميليا ، وضعت إشارة إلى بعضها الذي ذكرني مباشرة بحكايات كنت قد قرأتها في مصنفات عربية لمصنفين مختلفين . قليل من هذه الحكايات كان يسيرا عليّ نوعا ما أن أردها إلى الحكايات العربية المشابهة ، بعضها الآخر كنت قليل الحظ معه ، فلم أعثر على أصولها برغم مراجعتي بعض المصادر التي اعتقدت أنني قرأت فيها هاتيك الحكايا للمرة الأولى .

لم أجزم بأن الحكايا العربية التي ترجمتها للإسبانية فيما بعد هي الأصل المباشر للحكايات الإسبانية ، مدركا الخطورة القصوى في اتخاذ مثل هذه التأكيدات في حقل ضخم وعسير مثل حقل الأدب المقارن دون حيثيات راسخة للحكم أشد من التشابه البعيد ، ومع ذلك فإن الحكايات الثلاث التي عينتها تبدو ترجمة مباشرة لأصولها العربية أو بتعبير أفضل هي نسخة طبق الأصل من الأصول ذاتها ، مع اتخاذ جو جديد لكي تقدم الشخصيات في الحكاية – بأعراف أخرى – الأهمية القصوى إلى قارئ من حقبة أخرى ، بل قبل كل شيء إلى قاريء ذي ثقافة أخرى .

ليس لأية حكاية من الحكايات الإسبانية الثلاث صبغة شعبية ، وليست معروفة جيدا حسبما أعتقد ، وإن كنت قد عثرت بالمصادفة المحضة تقريبا على حكايات أخرى لكتاب قشتاليين ذوي أهمية ضئيلة ؛ لأني لم أشرع في بحث منهجي .

وبالمثل يمكن القول عن الحكايات العربية المشابهة حاشا حكاية واحدة منها كما سأشير إلى ذلك في وقته المناسب ، واضح لكي نجزم بهذا ، لابد من مراجعة عدد كبير من الأعمال الأدبية ، ومراجعة قوائم المرددات الشعبية لكثير من البلدان العربية .

أعتقد أنهم لم يشيروا إلى أصل بعيد أو قريب في الآداب الأوربية لأية حكاية من الحكايات التي أدرسها ؛ فالرواية التي يقدمها كتاب «الملح الإسبانية» تبدو «إسبانية» تماما ؛ بحيث يظهر من الصعب أن يفكر أحد في أصل عربي محتمل لها ، فالطابع كان دقيقا في الحكايا الثلاث .

ثنتان من الحكايات الثلاث للويس دي بنيدو ، في كتابه «كتاب النوادر» ، ولنقل قبل ان نبدأ إن هذا الكاتب قد أبدى اهتماما في إحدى المناسبات بماضي وطنه الإسلامي ، فسمح لنفسه أيضًا أن يستشهد بجملة تعزى إلى أحد ملوك المغرب ، جملة لم أستطع أن أحققها ، ولا المناسبة التي قيلت فيها لكني أظن أن الجملة وصلت إليه من أحد الموريسكيين متوجها بها إلى شخصية عظيمة ، وربما كان لها علاقة بتدمير قصور الحمراء لكي يشيدوا قصر كارلوس الخامس ، تقول الجملة ما يلي: قال ملك فاس : لماذا هدموا بيوت غرناطة ؟ على الأقل ليس في ذرعهم محو ثلاثة أشياء : الثنورة الخضراء ، والشريط الفضي ، والخمار الأبيض وتلك هي البستان ، والنهر الذي يدور ، والجليد في الجبل يبهر البصر ، ويلطف الحرارة » .

التينات الثلاث :

لنبدأ بالترتيب الذي جاءت عليه الحكايات في كتاب «النوادر» تقول الحكاية الأولى ما يلي :

في أحد الأعياد العظيمة جلبوا إلى دييجو دي روخاس ثلاث تينات باكورة من حائط له ، ووضعوها على مائدة ، كانت لديه شهية في التهامها ، لكن حضره البول فدخل المرحاض ، وبينما هو كذلك أكل أحد الغلمان إحداها ، حين خرج دييجو دي روخاس سأل عن من أكلها حين عرف أنه غلامه قال له : قل لي كيف أكلتها ، ألم تخش شيئا ؟ فاقترب الغلام من المائدة وأكل واحدة أخرى ، قائلا له : لقد أكلتها بهذه الطريقة يا سيدي ، فأخذ دييجو دي روخاس الباقية وقال : أقسم لك إذن أنك لن تأكل هذه الثالثة .

يحتوي كتاب حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر(*) للوزير الفقيه الغرناطي المشهور أبي بكر محمد ابن عاصم (1359 – 1426) ، يحتوي على حكاية هي جوهر الحكاية السابقة وإن كانت طريقة المحاجة تختلف ، تقول الحكاية ما يلي :

> وجد رجل في شجرة تين باكورتين في غير إبان الباكور ، فجعلهما في طيفور على رأس غلام ليهديهما للملك ، فأحس الغلام بخفة الطيفور ، فأراد أن يعلم ما فيه ، فرفع الغطاء ، وأدخل يده ، فلم يجد في الطيفور غير الباكورتين، فأخذ واحدة فأكلها ، فلما وضع الطيفور بين يدي الملك بمحضر صاحب الهدية ، أمر أن يرفع الغطاء عن الطيفور ، فلما رفع لم يجد في الطيفور غير باكورة واحدة ، فقال للغلام ما فعلت بالأخرى ، فقال هكذا ، وأخذ الباكورة التي بقيت ورمى بها في فمه وأكلها ، فضحك الملك من فعله .

ثمة رواية وسط في الأدب الإسباني ، وهي أقرب إلى الرواية العربية بالرغم من تفنن مؤلفها في تنميقها ، أعني الرواية التي يضمها كتاب «حياة بدرو سابوتو»

(*) حققنا هذا الكتاب ونشر مرتين أولاهما في بيروت ، والثانية في دار الكتب المصرية مع مقدمة مطولة.

للكاتب الأراغوني براويلو فوث (1791 – 1865) ، هذا الكاتب ومصنفه غير معروفين بما يليق بهما ، برغم أن هذا الكتاب أعيد نشره منذ سنوات قليلة خلت . أقول إن حكاية التينات الثلاث – وهن ثلاث كذلك هنا مثلما هو الحال لدى لويس دي بنيدو ، وليست ثنتين كما هو الأمر لدى ابن عاصم – أقول إن هذه الحكاية تشاكه كثيرا الحكاية العربية التي وصلت إلى فوث الذي يعرف من أية الطرق وصلت ، ومع ذلك فإنه محتمل جدا أن فوث قد عرف «كتاب النوادر» لمصنفه بنيدو الذي استغل موضوعا ما كما سأقول فيما بعد تغطي الحكاية الجديدة التي يلعب فيها دور البطل الحاذق بدرو سابوتو الفصل الثاني عشر من الكتاب تقريبا ، ذلك الفصل الذي يحمل على وجه الدقة عنوان «حول عمولة التينات الثلاث ، تقص الرواية ما يلي :

في باحة تل كورونا مزرعة تين لم تثمر فيما سلف قط ، وفي هذا العام أثمرت ثلاث تينات عجبا ، غضة ، فائقة ، فقرر المجلس أن يبعث بها إلى صاحب الجلالة ، وأن يقوم بعبء حملها بدرو سابوتو ، وأمروا أشهر بائع أسفاط في وشقة أن يصنع سفطا بدعا ، له ثلاثة أقسام لتوضع التينات متفرقات ، فجهز كل شيء ، ووضعت التينات في مهاد وثير ، وأعطي السفط لبدرو سابوتو ، وكذلك نفقات السفر ، وولى وجهه شطر بلاط الملك .

وبعد مسافة وجيزة ، قال في نفسه : إن ما يصنعه أهل بلدي حماقة عظيمة ، ولست أدري كيف أخفي هذا لئلا يبدو . أظن أنني أصل هنالك ، فماذا أقول ؟ ماذا سأقول للحاشية ذات الثعلبية المبتورة؟ ماذا سيقولون حين يروني أحمل من المدور في أراغون ثلاث تينات لصاحب الجلالة وأطلب منهم لقاء الملك لأقدم له الهدية ، وألح في هذا ؟ بالنسبة لي ، ليس صعبا عليّ – حقيقة – أن أذهب إلى البلاط ، وإلا فلست بدرو سابوتو إذا لم ير الملك هذه التينات ويستقبلها . لكن . كيف أفعل أنا

لكي تسفر هذه الجهالة وهذا التصابي عن تقدير وسمعة لدى العشيرة في قريتي ؟ هكذا مضى يفكر في رحلته ، وفي اليوم الرابع وصل إلى قلعة عبد السلام .

قال في نفسه : ها قد اقتربت ، وما كنت أفكر فيه ، فإن ثنتين مثل ثلاث تينات ، فلآكل واحدة ، أكلها ، ومضى ، وصل إلى مكان يدعى محلة الروح القدس ، قال : ما كنت أفكر فيه من قبل ، واحدة مثل ثنتين فلآكل واحدة إذن ، أكلها ، ومضى ، في النهاية وصل إلى الاستراحة الجميلة ، حيث كانت إذاك المقر الملكي ، ومقر الأسرة المالكة كلها ، وكما أن كل شيء كان قد فكر فيه جيدا ، وحلله وقدره ، دخل القصر واثقا تماما من نفسه مطمئنا .

في ذلك الحين كان الذوق المسيطر على القصر حمل الكوفيات ، والنكات اللاذعة، الأمر الذي يجعل خفة الظل وقيمة المحادثة ، وآيين البلاط يكمن في النكتة، والتورية، والآبدة ، والنادرة ربما تكون فاحشة ، محمولا كل هذا محملا حسنا دالا على الفطانة واللقانة . عرف هذا بدرو سابوتو حين مر قبل ذلك على البلاط الملكي ، وبالمناسبة قد خجل إذ رأى قماءة في موضع «الجلالة » والعظمة التي ينبغي أن تناسب إمبراطورية باذخة ، وبلاطا ملكيا مثل إسبانيا سيدة بلاد كثيرة ، لكن بدا له الآن أن هذا نفسه سيسهل مهمته ، وأمل أن يخرج من هذه السبيل موفقا.

وصل بالفعل إلى القصر ، متظاهرا بالعته ، طلب رؤية صاحب الجلالة الذي يحمل له رسالة رسمية من مجلس المدور ، ومعه هدية ستدونها حوليات المملكة باعتبارها شيئا رائعا مما رأته ، سألته الحاشية : أي شيء أحضره ، فأجاب : لابد أن يكون صاحب الجلالة هو أول من يراه قبلهم ، ولن يذوقوه ، ولأنه كان رجلا نافد الصبر ، لم يحتجزوه كثيرا ، وحاول دخول غرفة النوم ، وكان صاحب الجلالة لا يزال في سريره ، ورغم كل شيء ، فإنهم رغبوا في دعابته ، ملحين عليه أن يروا

ماذا أحضر في سفطه ، وفي محاولة دائبة منه ليستمر ظريفا ، قال لهم : انظروا ، بصراحة إذا أزعجتموني سأفر إلى الداخل ، وأشهر سيف صاحب الجلالة ، مقسما لكم به ، وآمركم أن تستأجروا أرواحا ، إذا كان في القصر من يؤجركم . لأنكم ستبقون بلا أرواح ، فقال أحدهم : هل رأيتم مجنونا ظريفا كهذا ؟ احملوه إلى صاحب الجلالة ، بحق القديس خورخي فسوف يروق له هذا جدا ، حملوه بينهم جميعا ، وأدخلوه إلى غرفة صاحب الجلالة .

وصل إلى حضرة الملك ، في إحدى يديه رسالته ، وفي الأخرى السفط ، طلب من صاحب الجلالة إذنا أن يقدم إليه رسالته المكتوبة من مجلس دائرته ، صرح له الملك بكل سرور ، فقرأها ، ثم قال له : إذن أحضرت إليّ ثلاث تينات ؟ فأجابه : نعم يا سيدي ، هي ها هنا في هذا السفط ، دفعه إلى الملك ، قام بفتحه ، فلم ير إلا تينة واحدة فقط . فرد أحدهم على سابوتو : هنا تينة واحدة فقط ، مع أن الرسالة تذكر ثلاث تينات ، فقال الملك : أيها الرجل ، تقول الرسالة إنك أحضرت إلى ثلاث تينات وهناك لا أرى سوى واحدة ، فقال بدرو سابوتو ؛ هو هذا يا سيدي الملك ، كان هنا ثلاث تينات ، غير أني قبل أن أصل إلى هنا قد أكلت اثنتين ، سأله الملك : أنت أكلتها ؟ كيف صنعت هذا ؟ رد عليه بدرو سابوتو : هكذا ، آخذا التينة من يد الملك ، وأكلها بخفة وسرعة ، حين رأى رجال الحاشية هذا الصنيع ، راقت لهم النادرة جدا ، وقالوا : إنهم لم يروا نكتة مثل هذه ، حتى الملك سعد بهذا ، وراقت له النادرة أيضًا ، وخلع على بدرو سابوتو ، هكذا كان ينتظر ، ولم ينخدع لأنه عرف صبوة رجال البلاط وطيشهم منذ السفرة الأولى ، وأمر الملك ألا يخرج من القصر إلا بإذنه ، وأن يحتفي به رجال الحاشية والفرسان ، وأن يخلعوا عليه .

ألمح الناشر صديقي العزيز فرانسسكو يوندراين إلى أن الحكاية ليست أصيلة لدى فوث ، وإن كان الأخير لم يشر إلى المصدر أو المصادر ، والشيء المحير في

القضية هو أن فوث قبل أن يورد الحكاية يزهو بأصالتها ، ويهاجم في إشارة غامضة كاتبا أجنبيا (ربما كان هو المصدر الذي نقل منه) لأن فوث كانت لديه أصول كتاب آخرين ، لقد أخذ من لويس دي بينيدو ، ليس فقط في كتابه حياة بدرو سابوتو ، وفي طوايا الذنب تكمن التوبة ، وإن كان لم يشر إلى هذا مطلقا ، وعليه فإن كتاب فوث غدا مصدر استلهام لكاتب إسباني آخر هو الأرغوني : رامون خ ، سندر .

وبصدد حكاية التينات عشرت في الأيكة الإسبانية لملتشور دي سانتاكروث المؤلفة في الثلث الأخير من القرن السادس عشر على حكاية في الفصل السادس من الجزء الثاني ، في فصل يحمل عنوانا جانبيا هو «عن الصبيان» أنقلها فيما يلي :

أرسل دوق انفنتاثجو إلى قونت سالدانيا ديكا روميا بين طبقين رائعين من زجاج فينسيا ، يقدران بثمن باهظ ، حين كشف الصبي عن الديك أمام القونت ، كسر طبقا ، فأرسل القونت كبير طهاته إلى الدوق يلتمس منه ألا يغضب إذ انكسر الطبق بسببه ، حين عرف الدوق هذا ، سأل الصبي محنقا : كيف كسرته ؟ فأجابه وهو يرمي بالطبق الآخر إلى الأرض قائلا له : هكذا كسرته .

الأمر – كما نرى – صورة أخرى للحكاية ذاتها ، وليست الحكاية وحدها التي لها صلة ، والتي نعثر عليها في مصنفات الحكايات الإسبانية ، ما زال في الذرع الإشارة إلى صدى بعيد في الطبعة الأولى ، موجود في حديث المائدة ودليل المسافرين ، لخوان دي تيمونيدا ، اختفت في الحكاية ليست التينات فقط موضوع الهدية ، بل اختفت فكرة الهدية ، غير أن البطل يظل هو الغلام ، وفحوى الحكاية والحل يظلان كما هما .

يتحدث بلتران – يتحدث لسوء بخته – لماذا يقال ؟ كان صبي يحمل قنينتين من النبيذ في الشارع ، ولكي يتحاشى الصدام بحيوان ، صدم قنينة بأخرى ، ودخل بيته

باكيا ، سأله سيده – كما يحكي بلتران – لماذا يبكي ، أجابه الصبي : لقد كسرت القنينة يا سيدي ، فسأله سيده : كيف ؟ فما كان من الصبي إلا أن كسر السليمة بالمحطمة التي أحضرها ، فهشمها قطعا متناثرة ، قائلا : بهذه الصورة كسرتها يا سيدي ، فأجابه سيده متصبرا : تحدث بلتران تحدث لسوء بخته .

المثل الذي يختم هذه الحكاية ، والذي يبدو بمثابة الشاهد ، يبدو كذلك لدى جونثالو دي كورياس في كتابه المعروف مجمع الأمثال والأوابد .

الخطيب الذي يرتج عليه :

الحكاية الثانية أيضًا نجدها لدى بينيدو ، وهذا نصها :

وصل طالب من شلمنقة إلى قرية جبلية ، وهو ابن أرملة – لا تُعرف له مهنة ، أو علم حصله . في بعض الأيام ألح عليه الناس كثيرا أن يعظ أهله ، لم يجد مناصا من القبول أمام إلحافهم ، فاجتهد في مذاكرة الخطبة ما استطاع ، وصعد المنبر ، ولم يكن له عهد بالمنابر ، لذلك أرتج عليه تماما ، ولم يجد ما يقول ، وبعد وقت طويل من الحيرة والضياع ، قال : أيها السادة : أنتم تدرون ما أريد أن أقوله لكم ، فقال أحد الحضور : سيدي ، بعضنا يدري والبعض الآخر لا يدري ، فرد عليه الطالب : فليخبر الذي يدري الذي لا يدري ، وهكذا تدرون جميعا ما أريد قوله .. .. ثم نزل.

أنقل الآن الحكاية نفسها من حدائق الأزاهر لابن عاصم :

صعد أبو العنبس منبرا من منابر الطائف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فأرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ، قالوا : لا . قال : فما ينفعكم أن أقول لكم ما لا تدرون ، ونزل . فلما كان الجمعة الثانية صعد المنبر فقال: أما بعد ، فأرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أقول لكم ، قالوا : نعم . قال : فما

حاجتكم إلى أن أقول لكم ما قد علمتم ، ثم نزل . فلما كان في الجمعة الثالثة صعد المنبر فقال : أما بعد ثم أرتج عليه . فقال : أتدرون ما أقول لكم ، فقالوا : بعضنا يدري وبعضنا لا يدري ، فقال : فليخبر الذي يدري للذي لا يدري ثم نزل .

بطل حكاية ابن عاصم شخصية مشرقية ، يتكرر ذكره في كتب الأدب العربي إلى حد بعيد ، اسمه كاملا كما ورد في معجم الأدباء لياقوت الذي استقى أخباره من الخطيب البغدادي هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أبي العنبس بن المغيرة ابن ماهان ، ويذكر عادة بكنيته أبي العنبس ، كان شاعرا ، تروى له الأبيات ، ومع شعره ونثره ، كان يعرف بذكائه وسلاطة لسانه ، متحفزا دائما لهجاء الشعراء أو لهجائهم له في بلاط المتوكل ، كان قاضي الصيمرة بعض الوقت ، حتى نسب إليها فيقال الصيمري ، كتب حوالي ثلاثين مؤلفا ، قائمة يذكرها ياقوت ، أغلبها من أدب المناسبات الشديدة القذاعة ، وبعضها في الفلك الذي كان يتعاطاه ، ومات في سنة 275 / 888 / 89 .

تحول أبو العنبس في حكاية لويس دي بينيدو إلى طالب يتلقى العلم في شلمنقة ، وحين وصل إلى قريته يلح عليه أهله أن يعظهم ، وتحول منبر المسجد إلى منبر في الكنيسة ، والأحداث الثلاثة لدى ابن عاصم والتي أحدثت نموا للحدث الأصلي اختصرها بينيدو إلى حدث واحد هو الحدث الثالث ، وفضلا عن ذلك فإن الحدث هو نفسه ، وهنا أيضًا أرتج على الخطيب مع أنه أعد خطبته ، ويخطر له نفس المخرج الذي خطر لأبي العنبس ، إلى جانب أن الجملة الاستفهامية لدى أبي العنبس جملة إخبارية في الحكاية الإسبانية ، وفضلا عن الاصطلاح اللاتيني الذي أراد به بينيدو أن يعطي لحكايته به نكهة خاصة إلا أن حكايته صورة طبق الأصل من الحكاية

العربية إلى درجة أن الجمل الحوارية يمكن أن تكون ترجمة مباشرة من نظيرتها العربية :

Vosotros (sénores) sabéis lo que
Quiero decir

أتدرون ما أريد أن أقول لكم .

(senor) dellos lo saben ydellos no.

بعضنا يدري وبعضنا لا يدري

Pues los que lo saben diganlo a los
Que no lo saben .. y bajóse.

فليخبر الذي يدري للذي لا يدري . ثم نزل .

لا أعرف رواية إسبانية أخرى لهذه الحكاية ، لكنها في العربية ذات شيوع كثير، فقد عثرت على صورة دقيقة – مع تغيير طفيف – لدى كاتب أندلسي آخر قبل ابن عاصم بكثير ، ومن الممكن أن يكون المتأخر قد نقل عن المتقدم ، وأعني به ابن عبد ربه الكاتب المعروف ، صاحب العقد ، أو العقد الفريد ، وهي تسمية غير دقيقة برغم أنه اشتهر بها – الحكاية منسوبة إلى أبي العنبس في الجزء الرابع من الطبعة الدقيقة والأخيرة الصادرة في القاهرة ، ومعها حكايات أخرى متعددة لخطباء مفوهين إلى حد ما ، بعضهم ذائع الصيت ، وقد ارتج عليه حين شرع في الخطبة ، وخرج من الصمت بما فتح الله به عليه ، ونرى أن الموضوع يشكل منذ القدم فصلا ضروريا ؛ إذ أنني وقعت عليه أيضًا في مؤلفات مشرقية أخرى ، وكذلك في مؤلفات أندلسية ، وأيضًا باعتباره موضوعا شائعا في مصنفات الحكايات والنوادر الإسبانية . مات ابن عبد ربه شاعر الخليفة القرطبي الأول في سنة 328 / 940 .

الحكاية معروفة كذلك في الأندلس إذ أن العقد كان ذائعا جدا ، في النصف الأول من القرن العاشر .

عثرت على الحكاية – كما هو المتوقع – في نوادر جحا الكبرى التي ترجمها من التركية إلى العربية حكمت شريف ، وهي الحكاية الأولى على وجه التحديد في هذا الكتاب ، وتقول ما يلي :

جلس الشيخ نصر الدين افندي يوما على منصة الوعظ في أحد جوامع آقشهر ، وقال : أيها المؤمنون : هل تعلمون ما سأقوله لكم ، فأجاب السامعون : كلا . لا نعلم . قال : إذا كنتم لا تعلمون فما الفائدة من التكلم ، ثم نزل . وعاد في يوم آخر فألقى عليهم نفس السؤال ، فأجابوه هذه المرة : أجل إنا نعلم ، فقال : مادمتم تعلمون ما سأقوله ، فما الفائدة من الكلام ؟ فحار الحاضرون في أمرهم ، واتفقوا فيما بينهم على أن تكون الإجابة في المرة القادمة متناقضة ، قسم يجيب لا .. وقسم يجيب نعم . ولما أتاهم المرة الثالثة وألقى عليهم سؤاله الأول ، اختلفت أصواتهم بين لا ، ونعم . فقال : حسن جدا ، من يعلم يعلم من لا يعلم .

حين نسبت تلك الحكاية إلى جحا – وهو الشخصية الأكثر شعبية في العالم العربي – ويعلم الله متى نسبت إليه ، وقد شاعت كما شاع غيرها في كل زوايا العالم ، لا يعنيني أن أقتفي آثارها في مصنفات الحكايات الشعبية ، ويكفيني أن أشير إلى أنها حتى الآن حية في شمال أفريقيا ، إلا أنني أريد أن أستند إلى إحدى هذه الحكايات الشعبية التي لها صلة بالحكاية الإسبانية من القرن السادس عشر .

نشر رينيه باسيه في كتابه ألف حكاية وحكاية منذ نصف قرن تقريبا رواية لحكاية جحا – وهي هي في جوهرها الحكاية التي نتحدث عنها ، وإن كانت مطورة بعض الشيء – وتتضمن نقطة التقاء مع حكاية بينيدو . النص كاملا تحت عنوان : (الخطيب الذي أرتج عليه) :

كان جحا ذات مساء في المسجد مع عدة أشخاص ، فقال له أحدهم : ينبغي أن تعظنا هذه الليلة ، فأجاب اعذروني أيها الإخوان ، فليس لدي ما أقوله لكم ، استحلفكم بالله أن تدعوني وشأني ، لكنهم قالوا له : لا محيص عن ذلك ، وحين رآهم ملحفين صعد المنبر ، وشرع قائلا : أيها الناس هل تعرفون ما سأقول لكم هذه الليلة ؟ فأجابوه : لا نعرف شيئا على الإطلاق فقال : عليّ إذن أن أتحدث إلى قوم جهلاء ، لا يعرفون شيئا ، اذهبوا إذن ، فتعلموا ثم أعود إليكم لأعظكم . ثم نزل من على المنبر وانصرف . فبهت الحضور مما قال ، وبعد قليل قالوا لأنفسهم : إذا سألنا في المرة القادمة . فعلى بعضنا أن يقول نعم نعرف ، وعلى البعض الآخر أن يقول : لا . لا نعرف .

وفي اليوم ذاته اجتمعوا ساعة الصلاة ، وعندما دخل جحا قالوا له : عليك أن تعظنا هذه الليلة . فسكت ، ثم صعد المنبر وبدأ قائلا : أيها الناس ، أيها المؤمنون ، هل تعرفون ما سأقوله لكم ؟ فأجابوه كما اتفقوا ، بعضهم : نعم ، وبعضهم : لا . فقال لهم : على من يعرف أن يعلم من لا يعرف حتى تعرفوا جميعا ، والسلام عليكم جميعا ، ثم ترك المسجد وانصرف .

الحكاية – بلا ريب – مشتقة من حكاية أبي العنبس – التي جمعها ابن عبد ربه وابن عاصم ، والتي نقلناها من قبل – وحين نسبت إلى جحا استغنى عن أن الفحوى مختلفة قليلا ، وأن الحدث يحوَّر هنا إلى حدثين فقط ، الأمر الذي يجعله يتفق مع حكاية لويس دي بينيدو ، في أن تشابهه مع هذا – في ذلك – يختلف مع الروايات العربية المشار إليها ، في أن الخطيب ليست مهنته الخطابة ، وحين صعد المنبر صعده مضطرا في الحالتين أمام إلحاف المؤمنين والمحصول واحد في كل الروايات ، بيد أن المخرج من الأزمة يبدو أكثر طبيعية ، من خطيب حاضر البديهة ،

متعدد المواهب كما هو الحال مع أبي العنبس الذي مهنته الخطابة كما رأينا ، وكما هو الحال مع الشيخ نصر الدين جحا في الرواية التركية .

دراسة هذه الحكاية تستحق معالجة أعمق ، واستقصاء أكثر ، فهي موجودة أيضًا في الأدب الإيطالي حيث البطل بيوبانو أرلوتو ، وكذلك في الأدب الأوكراني كما يقول باسيه ، وولجته بلا ريب عن طريق الأدب التركي .

المحارب الذي لا مخ له :

الحكاية الثالثة ضمن المصنفات التي جمعها دون خوان أركيخو تقول ما يلي :

رجع أحد القساوسة البرتغاليين من هزيمة الملك دون سباستيان في أفريقيا وفي رأسه نشابة غائرة . قال له الطبيب المعالج : ينبغي الحذر جدا لنزعها ؛ لأنها نشبت في خلايا المخ ، وقد مزقتها ، فأجابه صاحبنا : انزعها يا سيدي ؛ لأنه من غير الممكن أن يكون له مخ من يذهب إلى هذه المعركة .

نعثر في مجاني الأدب – المنتخبات الذائعة الصيت ، والتي جمعها الشيخ الفاضل الأب شيخو – على حكاية دون إشارة إلى المصدر المستقاة منه ، منسوبة إلى الشريشي المتوفى 1222 ، تقول ما يلي :

قال أفلح التركي : خرجنا مرة إلى حرب لنا ، ومعنا رجل كان يقول : أنا أتمنى أن أرى الحرب كيف هي ، فأخرجناه معنا ، فأول سهم جاء وقع في رأسه ، فلما انصرفنا دعونا له معالجا فنظر إليه وقال : إن خرج الزج وفيه شيء من دماغه مات ، وإن لم يخرج عليه شيء من دماغه لم يكن عليه بأس . وسبق فقبل رأسه وقال : بشرك الله بخير ، انزعه ؛ فما في رأسي دماغ . فقال الطبيب : وكيف ذلك . قال : لو كان في ذرة من دماغ ما كنت ههنا .

متوقعا أن تكون الحكاية هذه في الشرح المشهور لمقامات الحريري ، راق لي – متذرعا بالصبر – أن أبحث عنها في هذا الكتاب الذي كما هو معروف يحتوي على ثلاثة شروح مختلفة الكم ، وبالفعل بعد تصفحي لما يزيد عن ثمانمئة صفحة من الشرح الكبير الوحيد الذي تهيأ لي استطعت أن أصل إلى الحكاية في رواية ، تبدو الحكاية السابقة التي أوردتها وكأنها اختصار لها ، ولا أدري هل الحكاية المختصرة في مجاني الأدب والتي نقلتها آنفا منقولة من أحد الشروح الأخرى ، أم أن الأب شيخو اقتضبها دون أن يشير إلى ذلك ، وأورد الآن هذه الحكاية كما هي في شرح الشريشي:

قال أفلح التركي : خرجنا مرة إلى حرب لنا ، ومعنا معلم كان يقول : أنا أتمنى أن أرى الحرب كيف هي ، فأخرجناه معنا ، فأول سهم جاء وقع في رأسه ، فلما انصرفنا دعونا له معالجا ، فنظر إليه ، وقال : إن خرج الزج وفيه شيء من دماغه مات ، وإن لم يخرج عليه شيء من دماغه لم يكن عليه بأس ، فسبق إليه المعلم فقبل رأسه وقال : بشرك الله بخير ، انزعه فما في رأسي دماغ ، فقال الطبيب : وكيف ذلك؟ قال : لأني معلم كتاب الله تعالى ، وما في رؤوس المعلمين ذرة من دماغ ، ولو كان فيه ذرة من دماغ ما كنت ههنا .

هذه الحكاية في شرح الشريشي إلى جوار حكايات أخرى كثيرة تهزأ بالمعلمين ، وهي – احتمالا – تشكل جزءا من كتاب المعلمين للجاحظ وهو مفقود اليوم ، لكن بقيت منه حكايات عديدة في مصنفات أخر ، وإن كانت لا توجد إشارة واضحة في هذا الصدد ، إلا أن باقي الحكايات المصاحبة لحكايتنا ، والتي تسخر بلا شفقة من المعلمين ينسبها الشريشي إلى الجاحظ ، إحداها بطلها أبو العنبس التي تحدثنا عنها آنفا .

المشابهة التي تعرضها حكاية خوان دي أركيخو مع الحكاية العربية التي نقلها لنا الشريشي ، وبخاصة في رواية مجاني الأدب لا تحتاج إلى وقفة خاصة ، لكني أعتقد أنه من المناسب لفت النظر إلى حادثين في الرواية المسهبة ، في الحكايتين ثمة تداخل

هو بلا شك ما يتعلق بالبطل . معلم في الحكاية العربية : نموذج لرجل مغفل يسخر منه الجاحظ بشدة ، ويبدو أنه هو الذي رسمه من خياله (المعلم الذي صلح بيننا أيضًا نموذجا لهجائيات مقذعة) وفي الحكاية الإسبانية معلم صبيان – وهو في الوقت ذاته الذي يعلم الصبيان المعارف الدينية مع تحفيظه القرآن لهم – هو قسيس (في الترجمة الأقرب للكلمة) شخصية لا تزال أيضًا محط سخرية في الأدب الإسباني في القرن السادس عشر ، ويعرض خوان دي أركيخو نماذج متعددة في مصنفه .

وكما هو الحال في المشهد العاشر المشهور في «الحياة حلم» لكالديرون ، العالم يوازى الفقيه في الرواية الأصلية في الترجمة الذاتية كما أشرت إلى ذلك في مناسبة أخرى ، فالمعلم هنا هو معلم كتّاب قد تحول إلى قسيس برتغالي .

ما زال لدينا إمكانة العثور على صدى للأصل العربي السابق إذ بينما يتطوع معلم الصبيان المتشوق للمعرفة مع فرقة أفلح التركي – رجل معروف بالشجاعة ، ومات في الحرب – في موقعة الحرة – فإن القسيس في الرواية الإسبانية سفك دمه في معركة القصر الكبير تحت قيادة ذلك الملك الشجاع والسيء الحظ ، والذي قتل في الحرب أيضًا .

رواية إسبانية أخرى ، مشوهة بعض الشيء ، وفي تورية متكلفة ، وهو شيء يطبي المؤلف كثيرا ، عثرت عليها في أيكة سانتاكروث : البرتغالي فيها جليقي ، والحرب بلا تدقيق كثير (حرب غرناطة) .

مضى جليقي إلى حرب غرناطة ، فنشب في رأسه سهم حين رآه الطبيب المعالج قال له : لن تنجو ؛ لأن السهم نشب في المخ ، فأجابه الجليقي : هذا غير ممكن . فرد عليه الطبيب : إنني أراه . فقال الجليقي : أقول إن هذا غير ممكن ؛ لأنه لو كان لدي مخ لما مضيت إلى تلك الحرب .

انتقلت الحكاية من أيكة سانتاكروث إلى أيكة فرانسسكو اسنسيو المنشورة في سنة 1730 ، يتقيل الأخير خطى السابق حتى في عنوان كتابه . أعاد تحرير الحكاية القديمة ليضمها إلى الفصل الذي عنوانه «التحديات» وها هي الرواية الجديدة – وليست الأخيرة دون ريب – التي تحتفظ بالإجابة المسكتة التي في الحكاية العربية :

أصابت أحدهم نشابة في رأسه ، فشقتها نصفين ، فحصه الطبيب ، وأثناء الفحص حاول أن يتحقق هل أصابت خلايا مخه ، فقال له الجريح : لا عليك من البحث ، فلو كان لي مخ ما دخلت فيما دخلت فيه .

حين انتهيت من تحرير هذا المقال ، وعلى أهبة إرساله إلى المطبعة ، أتاح لي – متكرما – دون إميلو غرثيه غومث أن أرجع إلى المخطوط رقم 91 من مجموعة جاينجوس المحفوظة في الأكاديمية الملكية للتاريخ ، وتضم كتاب ابن عاصم (حدائق الأزاهر) انظر الورقة R3 ؛ لأنني لم أستطع رؤية طبعة الحجر التي نشرت في فاس ، لم أجد تغييرات هامة في تحرير الحكايتين الأوليين اللتين درستهما في هذه الصفحات (حكايتا بينيدو) بيد أن هذه المراجعة أتاحت لي التأكد من شيئين قد توقعتهما :

1- ثالثة الحكايات لدى خوان دي أركيخو موجودة هنا أيضًا في الورقة V 95 في رواية مشابهة لشرح الشريشي مع بعض تحويرات . الحجام ، الحلاق (في الإسبانية القديمة Alfajeme) بدلا من الطبيب ، وشيء آخر لا يغير شيئا من المعنى .

2- تأتي هذه الحكاية مستهلة بالجملة : قال الجاحظ ، وهو أمر قد توقعته قبلا ، أو كان يشكل جزءا من كتاب المعلمين ، في مكان قال أفلح التركي .

الشيء الجديد هو أن الحكايات المنوعة التي تسبق هذه أو تتأخر عنها في المخطوط تأتي في نفس الترتيب في شرح الشريشي ، وبتصفحي عابرا المخطوط

عثرت على حكايات كثيرة كذلك في شرح الشريشي وهو مصدر استخدمه ابن عاصم بلا ريب .

أمام هذه الحكايات الثلاث في كتاب ابن عاصم – وهو متأخر ، وكان مصنفه ذائعا جدا ، وحفظت منه مخطوطات كثيرة – توقعت أن هذه الحكايات ترجمها أحد الموريسكيين – وأولجها في الأدب الإسباني في القرن السادس عشر ، وليست هذه الحكايات وحدها التي تشير إلى ذلك ، فإنني آمل أن أدلل على ذلك قريبا بنماذج جديدة .